السفير

عنوان: «أعمال متحفية» لبول غيراغوسيان وشفيق عبود في معرض مشترك قامتان عاليتان في مهرجان ألوان وتجريد غنائي فاتن

المصدر: السفير (1236 كلمة)

تاريخ ميلادي: 12/04/2010

الصفحة: 18

كاتب: بزون احمد

الشرح: إقامة معرض استعادي لتجربة كل من الفنانين اللبنانيين الرائدين بول غيراغوسيان وشفيق عبود ليست سهلة، بسبب غنى حياتهما الفنية، وتشعبها وكثافتها. لذا اختار القيّمان على معرض حمل اسميهما في بيروت، أبراهام كراباجاكيان وتمارا إنجا جابر، أسلوباً واحداً من تجربتيهما، أو مرحلة، حملت عنوان التجريد. على أن التجريد تعبير مطاط، قد يتسع لأعمال من مراحل مختلفة. إضافة إلى أن أعمال المعرض تركزت على لوحات أقل ما يمكن أن يقال فيها أنها متحفية، قيّمة، منتقاة بتأنٍّ وخبرة، من مجموعات خاصة لدى مقتنين هم عائلة الحريري، بنك البحر المتوسط، فيفيان وروبير دباس، عائلة غيراغوسيان، جوزيف فالوغي، تمارا وعلي جابر، وصالح بركات.

وليس من السهل اختصار تجربتي الفنانين، اللذين شغلا الساحة الفنية اللبنانية والعربية والعالمية، بمقالة سريعة، مثلما لا يمكن لأعمال هذا المعرض اختصارهما أيضاً وتقديم صورة وافية عن فنانين كانت لهما تجارب متشعبة. وقد وجد القيّمان على المعرض قواسم مشتركة بينهما، في الريادة، والعالمية، والأسلوب التجريدي على افتراق مادته واختلاف وجهته، وحتى في أنهما ولدا في العام نفسه (العام 1926)، إضافة إلى أنهما بقيا حتى آخر لحظة في حياتيهما يصوّران أحلامهما في مساحات ملونة، ولو افترقا في عام وداع كليهما أضواء الدنيا.

ليس من السهل اختصار تجربة فنانين كان لهما دور أساسي في إبراز الفن اللبناني الحديث، ثم في الحداثة الفنية العربية. فنانان كان كل منهما أستاذاً ومعلماً، له أتباع ومريدون ومقلدون وجوقة فنية.

ليس من السهل الدخول في كتابة تحليلة وافية، لكن مثلما توقف القيمان على المعرض عند قواسم مشتركة، تبرر قيام معرض يضم تجربتيهما، يمكننا التوقف عند محطات تتلاقى فيها أعمال المعرض أو تقترب منها،

المتعلقات

لوحة لبول غيراغوسيان (من كتاب حمل اسم المعرض «أعمال متحفية»، ضم صور لوحات للفنانين).jpg

لوحة شفيق عبود.jpg

وبالتالي تضيء زوايا من حياة الفنانين الواسعة.
غلب على لوحات المعرض أسلوب التجريد الغنائي، التجريد الذي يفسح مجالاً للشعرية الرومنسية بالحضور، بعيداً عن التجريد الفوضوي، أو الانفعالي الفالت والمتحرر كلياً من التصوير الموضوعي المرتبط بواقع محدد. هما خاضا تجريداً لا يطلق التشخيص أو التلميح، ولا يخضع، في الوقت نفسه لضوابط صارمة، بل مارسا حريتهما الكاملة في التعامل مع الواقع. وهما وإن تعامل كل منهما مع الأجواء الانطباعية، وتأثرا بأساتذتها ومنظريها، افترقا في اتجاهات التجريد واختلفا في أغراضه، فقد ذهب غيراغوسيان أكثر في اتجاه فان غوغ وغوغان وسواهما، في حين اتجه عبود نحو بونار ومونيه وسواهما. ولم يكتفيا بهذا المفترق، إنما ذهب غيراغوسيان أكثر في اتجاه تفعيل الاتجاه التعبيري، كونه يحقق طموحاته أكثر في نقل معاناته ومعاناة شعبه إلى اللوحة، بل تجسيد الحياة اليومية والشخصية، في الوقت ذاته الذي يدخل فيه الطبيعة. ولعل افتراق طبيعة حياة كل منهما كان سبباً في افتراق تجربتيهما بل مضمون أعمالهما. إذ لم يستطع غيراغوسيان الخروج على واقع الهجرات والمآسي التي عاناها منذ طفولته، عندما ولد في القدس من عائلة أرمنية هاجرت إلى فلسطين بعد مجازر الأتراك العام 1915، ثم، بلا أب، هاجرت إلى لبنان العام 1948 بعد مجازر الصهاينة، عدا جولات التهجير الداخلية التي تعهدتها الحرب الأهلية في لبنان. وقد عاش سنيّ الحرب من دون أن يهجر لبنان، سوى سنتين قضاهما في باريس، في حين جعلت الحرب شفيق عبود يستمر في هجرته إلى باريس، التي كان يتنقل بينها وبين لبنان من قبل، حتى آخر أيامه.
احتفال
بعض انطباعية لدى الفنانَين كما تبدو من خلال أعمال المعرض، لم تلتزم التصوير المباشر للطبيعة أو أمام الناس والحدث، ولم تكن تسجيلية، حتى وإن كانت جانحة نحو التجريد، بل إن تحرر الفنانَين وتفلّتهما جعلهما يسحبان معهما شلالات الضوء إلى المحترف، الضوء الذي حملاه في ذاكرتيهما من الخارج، وعملا على تفكيكه في الداخل إلى ألوان رأيناها في اللوحات. بل إن عبود حمل معه إلى باريس نور الشرق والطبيعة اللبنانية، وغيراغوسيان حمل معه ألوان هموم الأرمن والفلسطينيين وفولكلورهم وطبيعتهم، بل وطبائعهم إلى لبنان. وربما إذا كانت لوحة عبود تشبه مهرجان فرح، فإن غيراغوسيان حوّل لوحته إلى احتفال حزين في أكثر الأحيان. فالاختلاف هنا تأتى أولاً وآخراً من خزين الذاكرتين وافتراقهما.
الطبيعة التي يرمي عبود نفسه في أحضانها، وإن باستحضار متخيل، تظهر ملامحها بشكل واضح ومباشر في لوحات المعرض، فالمشهد طبيعي بامتياز، إلا أن للطبيعة في لوحات غيراغوسيان حضوراً مختلفاً وغير مباشر، إذ قد نراها بارزة على أجساد شخوصه، أو على وجوههم وثيابهم. فالمساحات المقفلة بالناس تسمح بتسرب الطبيعة، أو تترك لها متسعاً لتظهر

من خلال القامات المنتصبة والمتراصة التي تملأ مساحة اللوحة. تظهر من خلال ألوانها وملامحها ورموزها.
كأن ألوان الطبيعة وأضواءها تغري غيراغوسيان وتفتنه وتسيطر عليه، إلى درجة تفرض فيها حضورها، حتى ولو كان الموضوع مجسداً بجماعة في مأتم، أو باحتفال بولادة طفل، أو بمسيرة، أو بمهرجان. فالطبيعة حاضرة كعنصر حواري في أي موضوع لا يحمل عنوان الطبيعة. هذا هو شأن أي فنان ملوِّن، مسكون باللون والضوء وجمالياتهما. الطبيعة التي يجسدها غيراغوسيان في اللوحات التي تصطف فيها مجموعات بشرية، هي الطبيعة المحيطة به، من تركيا إلى فلسطين فلبنان، لكنها الطبيعة المطبوعة بمزاج اللوحة وطقسها النفسي. أما عبود فكان، هو نفسه، يؤكد أنه حمل الضوء البارز في لوحته الباريسية من جبل لبنان. أي أنه كان مسكوناً بذاكرة حاضرة بحيوية نادرة ولها سلطتها على لونية اللوحة، لا سيما ذاكرة الطفولة. وهذا ما كانه غيراغوسيان في عدد من اللوحات التي نفذها في باريس، إذ لم تغب الجماعة عن لوحته ولا ألوان الذاكرة. قد نجد الطبيعة واضحة في لوحة عبود، لكنها طبيعة مؤنسنة وإن لم يظهر سكان بيوت الأرياف في لوحته، ولا الفلاحون الذين حرثوا الأرض وزرعوها، ولا العمال الذين سوّوا الأرض وقطّعوها مساحات، ولا إيقاعات الحياة المباشرة.
خزين ذكريات
إذا كانت لوحات عبود الباريسية صدرت عن خزين ذكريات ماضية وحنين إلى طبيعة غادرها، فهي لم تتجسد في المعرض بتفاصيلها، إنما بتآليفها العامة أو بإيقاعاتها، أو بحكاياتها. أما بول، الذي حمل إلى لوحته خزين أحزانه، ومشاهد النساء النادبات، وربما خزين طفولته البائسة التي لاحقته طوال حياته، فلكل لوحة لديه حكاية وموضوع وسبب. لكن الفرق أن حكايا غيراغوسيان قد يظهر منها بعض التفسير أو التأويل على وجوه ناسها، لكن تفاصيل حكايا عبود تبقى غائبة عن المُشاهد، وغامضة ولا يعرفها سواه، فنحن نرى الناس في وجه الطبيعة، في حين أننا ربما نرى وجه الطبيعة في الناس لدى بول. الاثنان كانا يأخذاننا إلى ما وراء اللوحة، أي إلى أحداث وأفكار وأحلام ويوميات لم يكشفا عنها بشكل صريح، فتلك هي طبيعة التجريد الذي يمكن أن نصف به لوحات المعرض المشترك الذي نحن في صدده.
ألوان الطبيعة لدى عبود كثيراً ما أتت متدرجة، أي أن الأحمر ليس واحداً وكذلك الأصفر والأخضر والأزرق، لكنها أتت في بعض اللوحات حاسمة ومنفصلة وصافية، بهندسية صارمة، كما في لوحة «حكاية جولي» أو في لوحات أخرى تحضر فيها الطبيعة كمجرد رقع لونية. أي أنها تحضر في اللوحة مرة كشلال ضوء يبهر الأنظار ويشدها ويذهلها، ومرة أخرى تتحول المساحة إلى مجرد حقول منفصلة من الألوان، تقيم حواراً بصرياً أو عرس ألوان. تتدرج في اللوحة بهدوء، كأنما لها سلم، تنتقل بواسطته من لون إلى

آخر بينما جاءت الألوان في لوحات غيراغوسيان قطعية، حتى لتبدو أحياناً كأنها مقصوصة بسكين، فاللون لديه يحدد انتقاله من الرأس إلى الجذع، ثم إلى الأقدام، أو من ثوب إلى آخر في تجريد شخوصه عن طريق الإشارة إلى أزيائهم وفولكلورهم. هذا القطع العمودي يقابله قطع أفقي بين امرأة وأخرى أو جسد وآخر. أحياناً تكون المساحات صافية وصريحة وقوية ووحشية، وأحياناً أخرى نرى الفنان يراكب الألوان ويلعب لعبة تشفيفها بعضها فوق بعض، مستخدماً في كثير من الأحيان عجينة لونية سميكة، تنمّ عن سخاء لوني ونفسي، وعن فيض أو دفق عاطفي. يترك العجينة نافرة، مرة، ويحفر في سماكتها مرة أخرى. كل ذلك بالرشاقة المعروفة لديه، وبالحرفة العالية التي يتمتع بها، والمراس السهل الذي أنتجه عمله المتواصل، وتكثيف حياته الفنية، التي باتت لا تنفصل عن حياته الشخصية.

قد لا ينتهي الكلام على هذا المعرض، فإن ما قدمناه لا يساوي إلا بعضه، لا لأننا أمام فنانين كبيرين وحسب، إنما لأن الأعمال التي يضمها المعرض مختارة ومصطفاة من بين أعمالهما، وبالتالي لا بد من أن تكون على درجة عالية من الفتنة والإمتاع، وتستحضر قامتين شغلتا الساحة الفنية لنصف قرن من الزمن، وسوف تستمر في ضخ الحياة لأجيال فنية مقبلة.

([) يستمر المعرض لغاية 22 نيسان الجاري، في صالة حُضِّرَت لهذه الغاية، في الدورة، الطريق البحرية قبل سيتي مول بمئة متر.

حقوق النشر محفوظة © شركة «السفير» ش.م.ل